الكوفة والنجف في أدب الرّحلات الفارسيّة

روايات تسجيليّة في رحاب المقدّس

د. كامل سلمان الجبوري

في العام ٢٠١٠م أصدرت وزارة الثقافة في الجمهورية الإسلامية الإيرانية كتاباً في أدب الرحلات عنوانه (بنجاه سفرنامه حج قاجارى) أو (خمسون رحلة حجّ في العهد القاجاريّ)، تضمّن مدوّنات خمسين شخصية إيرانية - إبّان العهد الملكي القاجاري (١٧٩٦ ـ ١٩٢٥م) - عن مشاهداتهم في الطريق إلى الحرمين الشريفين أو في العودة منهما.

وفي عددها الخامس الصادر في شهر رمضان من العام ١٤٣٦ للهجرة، نشرت (حولية الكوفة) الصادرة عن «أمانة مسجد الكوفة» نصوص اثنتي عشرة رحلة من هذه الرحلات؛ اقتصرت فيها على ما تضمّنتها من مشاهدات أصحابها - وفيهم من المسلمين السنّة - في الكوفة والنجف الأشرف، وتبعاً في كربلاء المقدّسة.

هذا المقال يتضمّن مختارات مختصرة ممّا ورد في التحقيق الذي أعدّه لـ(حوليّة الكوفة) رئيس تحريرها الدكتور كامل الجبوري بعد تعريب الأستاذ محمد حسين النجفي للنصوص الفارسية.

«شعائر»

مسجد الكوفة (١٩٢٥م)

رحلة الخواجة عبد الكريم محمود الكشميري

(١١٥٤ للهجرة/ ١٧٤١م)

وصلنا في اليوم الثالث (من بغداد) إلى تربة كربلاء الطاهرة المقدّسة، الشافية لأمراض الخواصّ والعوامّ الظاهرية والباطنية، والمسافة بين بغداد وكربلاء المقدّسة تبلغ خمسة عشر فرسخاً.

وتقع القبّة المباركة للروضة المنوّرة لسيّد الشهداء (رضي الله عنه) في وسط المدينة، وتربة كربلاء التي طار صيتها في العالم وانتشرت شرقاً وغرباً هي هذه التربة، وهي التي يطلقون عليها تربة الشفاء. وخواصّ وبركات تربة الشفاء كثيرة تستعصي على العدّ، من بينها أنّ السفينة إذا تعرّضت إلى الرياح الشديدة العاتية في البحر وصارت تتقاذفها الأمواج، فعلى أهلها أن ينتخبوا رجلاً صالحاً من بينهم كي يرميَ شيئاً من هذه التربة باتّجاه الرياح، فتبدأ شدّة الرياح – بقدرة القادر بالحقّ جلّ شأنه – بالانخفاض على الفور.

وتضمّ هذه المدينة أيضاً القبّة والقبر الشريف للعبّاس بن عليّ بن أبي طالب (رضي الله عنه). والناس هنا يقولون إنّ كلّ مَن دخل هذه الروضة وأقسم كاذباً فيها، ابتُلي في الحال بأنواع البلاء.

بلدة الحلّة وقرية ذي الكفل عليه السلام: والمسافة من كربلاء إلى النجف الأشرف على الطريق الصحراوي القاحل هي اثنا عشر فرسخاً، أمّا عن طريق الحلّة وقرية ذي الكفل عليه السلام، فهي ستة عشر فرسخاً، سبعة منها من كربلاء إلى الحلّة، ومن هناك إلى ذي الكفل خمسة فراسخ، ومنها إلى النجف معدن الشرف أربعة فراسخ.

وبلدة الحلّة مدينة عامرة على ضفّة نهر الفرات العظيم، ويقع مرقد نبيّ الله أيّوب على نبيّنا [وآله] وعليه الصلاة والسلام، على ضفّة ذلك النهر وعلى مسافة نصف فرسخ عن مدينة الحلّة، وإلى جانب ذلك القبر يوجد قبر زوجته رحيمة خاتون التي خدمته كثيراً أيّام مرضه.

أمّا عين الماء الواقعة خارج المقبرة فقد نبعت بأمر الشافي المطلق، جلّ شأنه، وتفجّر ماؤها بمشيئته، وهي التي أشار إليها القرآن المجيد بقوله: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ ص:٤٢. ويقول الناس إنّهم لم يذوقوا ماءً بعذوبة ماء هذه العين، وإنّه شافٍ للأمراض المزمنة.

وهناك أيضاً خارج المدينة – وعلى الجانب الآخر منها – قبر النبيّ شعيب على نبيّنا [وآله] وعليه السلام، وهو يبعد عن المدينة بمسافة مضمارَي فرس.... [مضمار الفرس يساوي ربع فرسخ]

وقد سمعنا قبل وصولنا إلى مدينة الحلّة من أهالي تلك الديار عن وجود منارةٍ في وسط صحن مسجد النبي شعيب عليه السلام، وأنّها من الضخامة والارتفاع في أقصى درجاتهما، حتّى أنّ عرض الدرج الذي بنوه في وسطها للصعود إلى أعلاها يبلغ ذراعاً وربع الذراع.

مقام النبي أيوب عليه السلام (الحلّة)

قبة مقام النبي شعيب عليه السلام (الحلّة)

مقام ذي الكفل عليه السلام

قافلة حجّ إيرانية (١٩١٠م)

وممّا يقولونه عن هذه المنارة إنّ كلّ مَن صعد إلى أعلاها واحتضن قمّة المنارة وهزّها بيديه، وقال بصوتٍ عالٍ: أيّتها المنارة اهتزّي على حبّ العبّاس بن عليّ، استجابت المنارة بالاهتزاز.

ولمّا كنت أنا العبد العاصي، منذ غابر الزمان، ساعياً وراء مشاهدة مثل هذه الأمور الغريبة وامتحانها، فقد عزمنا أنا والنّواب الحكيم علوي خان على التوجّه لنيل سعادة زيارة الضريح المنوّر لنبيّ الله شعيب على نبيّنا [وآله] وعليه السلام، والتحقّق من هذه الأمور العجيبة.

وبعد تشرّفنا بالزيارة، صعدنا إلى أعلى المنارة، ورغم ارتفاع أصواتنا وصراخنا بالعبارات المعهودة، واحتضاننا لتاج المنارة وهزّها بكلّ ما نملك من القوى، إلّا أنّها لم تحرّك ساكناً.

في هذه الأثناء عثرنا على خادم ذلك المكان، فاحتضن تاج المنارة كذلك، وهزّها بكلّ ما لديه من القوّة، فما كان من تلك المنارة إلّا أن تهتزّ على الرغم من استقرارها استقراراً لا نظير له إلّا استقرار جبل بيستون، وقد كان اهتزازها من الشدّة بدرجة أرعبت جميع مَن كان على المنارة حتّى التصقوا بزخارفها التصاق القُراد على (فريسته) خشية السقوط على الأرض.

وكان النوّاب الحكيم باشي في هذه الأثناء متواجداً في صحن المسجد، فلمّا شاهد ما شاهد من هذه الأحوال وكيفيّة تحرّك المنارة، ابتسم مندهشاً، وفي خاطره من التعجّب الشديد ما فيه، ورفعاً للشبهة والحيرة وزيادةً لليقين، قام الخادم عدّة مرّات بتلبية طلباته المتكرّرة وهزّ المنارة كما تهتزّ أغصان الشجر. [ترجمة بيتين من الشعر]:

العقل مندهشٌ من هذه الفعلةْ وسوى الحيرة لا ينفع معهْ
والقلب سـقط في بحر الحيرةْ وخـسر العقلُ من منبعـهْ

وعلى أيّ حالٍ تركنا الحلّة وراءنا واتّجهنا لزيارة حضرة النبيّ ذي الكفل على نبيّنا [وآله] وعليه السلام، وقد دُفن إلى جانبه أربعة من خلفائه أيضاً.

الدخول إلى مدينة المرتضى رضي الله عنه: وخلاصة المطلب أنّنا بعد أن قطعنا المسافات، نزلنا في مدينة النجف الأشرف، وتكحّلت عيون قلوبنا العاشقة بترابها الطاهر، كحل الجواهر.

ألف شكرٍ للإله، مئة ألف شكرٍ للإله.

وعمران هذه المدينة السعيدة أقلّ من عمران كربلاء، لقلّة زرعها وبُعدها عن النهر. أمّا أهلها فأكثرهم أناس كرام صالحون قانعون.

ولا يمكن المبيت أو السكن خارج سور المدينة، لاحتمال هجوم أعراب البادية في بعض الأحيان، حيث يحلّون بغتةً هناك لسلب المدينة. ومن هنا نرى صغار المدينة وكبارها اختاروا السكن داخلها والاحتماء بأسوارها.

وتبدو قبّة سيّد الأولياء وروضته، رضي الله تعالى عنه وكرّم وجهه، في أكمل أشكال عظمتها وزينتها شامخة في وسط المدينة، وقد نصبوا على ضريحه المنوّر الجواهر النفيسة.

ويعتقد الناس هناك أنّ قبرَي النبيّ نوح وصفيّ الله آدم على نبيّنا [وآله] وعليهم السلام، موجودان تحت قبّة سيّد الأولياء (رضي الله عنه)، إلّا أنّ مرقدَي هذين النبيّين العظيمَن ليسا ظاهرَين للعيان، ولا مرتفعان عن سطح الأرض.

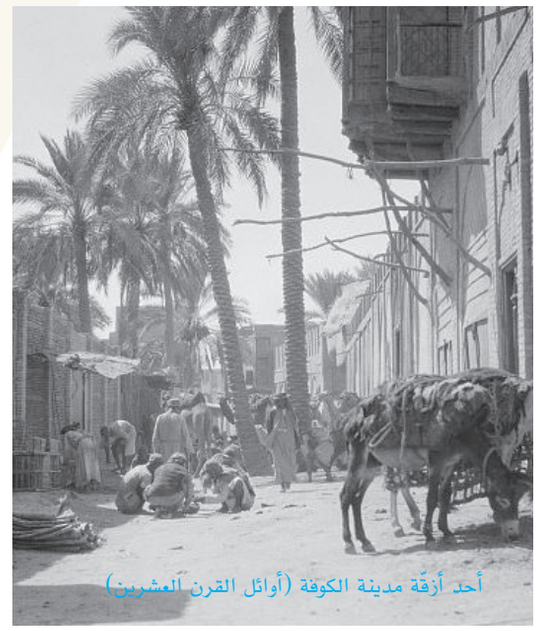
أحد أزقّة مدينة الكوفة (أوائل القرن العشرين)

قافلة تجتاز أحد الجسور على نهر الفرات

(شارع الرسول) المقابل للعتبة العلوية المقدّسة (١٩٠٧م)

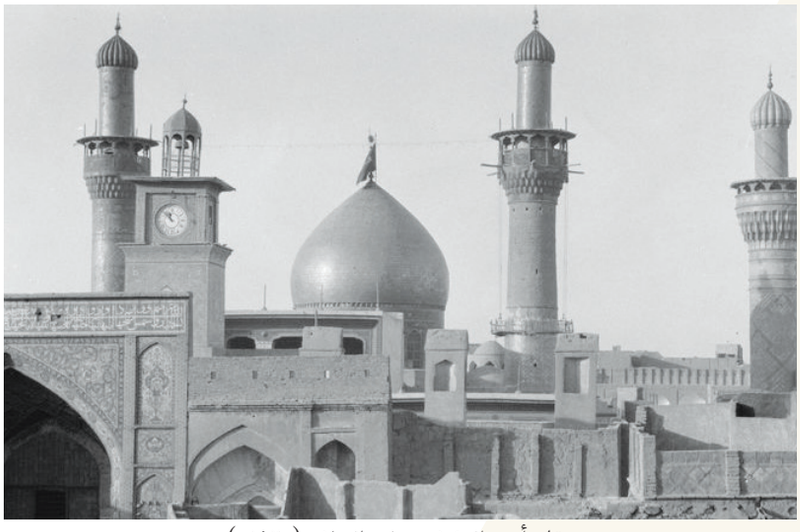
مقام أمير المؤمنين عليه السلام (١٩٢٠م)

رحلة الحاج عبد المحمد؛ حفيد فتح علي شاه القاجاري

(١٢٨٠ للهجرة/ ١٨٦٣م)

مغادرة ذي الكفل: .. والخلاصة أنّ المسافر بعد مضيّ ساعتين من مغادرته ذي الكفل، تلوح له القبّة المطهّرة لأمير المؤمنين عليه السلام، وبعد ساعتين أخريين تصل الباخرة إلى شريعة الكوفة. أمّا بعد ساعة من مغادرة الباخرة لذي الكفل، فيرى الناظر إلى الضفّة اليمنى للنهر بساتين تعود لأهل النجف، وقد مرّ على إحيائهم إياها عدّة سنين، وهي مقسّمة على عدّة قطع. كما أنّ الضفّة اليسرى للنهر على طول المسافة الممتدّة إلى شريعة الكوفة، هي الأخرى زاخرة بالبساتين العامرة الكثيرة.

وأمّا شريعة الكوفة: ففي وسط الماء بقعة تدعى النبيّ يونس، ويقول آخرون إنّها مدفنه. أمّا ساكنو الشريعة نفسها فهم جماعة من العرب تدعى (المعدان) الذين يربّون الجاموس والماشية، وقد استوطنوا هذه المنطقة واستقرّوا فيها. وبيوت هؤلاء الناس مصنوعة من القصب والبردي، وهم يشربون القهوة العربية المركّزة جدّاً. وعلى ضفّتي النهر اليسرى واليمنى تنتشر البساتين الكثيرة المقسّمة على شكل قطع مستطيلة.

رحلة السيد علي خيرت علي

(١٢٨٩ للهجرة/ ١٨٧٢م)

...بعد شهر ونصف من الإقامة في كربلاء المقدّسة، وطمعاً في الفوز بثواب زيارة أمير المؤمنين عليه السلام، المخصوصة في السابع والعشرين من شهر رجب، عزمنا على السفر إلى النجف الأشرف برفقة السيّدة الجليلة.

وهكذا تحرّكنا في يوم الأحد الثامن عشر من شهر رجب مع السيّدة الجليلة ومرافقيها، ممتطين البغال وعليها المحامل والهوادج، حتّى وصلنا مقام طويريج الذي يبعد عن كربلاء المقدّسة أربعة فراسخ. وقرب غروب الشمس من نفس هذا التاريخ تحرّكنا من طريق نهر الآصفي الذي يُطلَق عليه في هذه النواحي اسم (الهنديّة)، وصعدنا في أحد القوارب العموميّة من التي يقال لها في تلك النواحي (طرّادة).

وصلنا ليلاً إلى (مجدم) عند ضفّة النهر حيث ترسو القوارب، وقضينا نصف الليلة على سطح القارب، فلمّا حلّ صباح يوم الإثنين نزلنا مسرعين من على ظهر القارب، وصلّينا صلاة الفجر هناك، وتشرّفنا بزيارة قبر نبيّ الله يونس، على نبيّنا وآله وعليه السلام، وهو قريب من ضفّة النهر.

ثمّ امتطينا رواحلنا متّجهين إلى مسجد الكوفة الذي لا يبعد كثيراً عنّا، ووصلنا إليه مساء يوم الإثنين، وشرعنا في أداء أعمال المسجد. أمّا ليلة الأربعاء التي هي ليلة الأعمال المخصوصة بمسجد السهلة... فقد أدّينا صلاة المغرب في مسجد الكوفة، ثمّ توجّهنا نحو مسجد السهلة. وكان انتهاؤنا من أداء أعمال المسجد حوالي منتصف تلك الليلة.

رحلة الملّا إبراهيم الكازروني

(١٣١٥ للهجرة/ ١٨٩٧م)

المنزل الثاني والعشرون: خان المالح: خرجنا من مدينة كربلاء قاصدين النجف الأشرف صباح الأحد الثامن من الشهر بعد ساعتين من شروق الشمس، ووصلنا أوّل الغروب إلى خان المالح الذي كان المرحوم الشيخ مرتضى الأنصاري عليه الرحمة، قد أسّسه وبناه.

المنزل الثالث والعشرون: النجف الأشرف: في صباح يوم الإثنين التاسع من ذلك الشهر، جلسنا في الهودج وتحرّكنا، فوصلنا إلى النجف الأشرف قبل غروب الشمس بساعتين.

كنت أقضي أغلب أوقات ليلي ونهاري في الحرم المطهّر، حتّى أنّي كنت أقرأ دعاء «أبو حمزة» مدّة ثمان ليالٍ من الشهر المبارك، وأخرج متّجهاً إلى المنزل قبل طلوع الفجر بساعة ونصف أو ساعتين لتناول طعام السحور.

وكنت أذهب في بعض الأيام إلى وادي السلام لزيارة أهل القبور. تضمّ صحراء وادي السلام هذه أيضاً بناءً وغرفة يقرأون فيها زيارة صاحب الزمان عجل الله فرجه، وفيها محراب، وفي المحراب صخرة منقوشٌ عليها زيارة الإمام الحجّة، ويقولون إنّ مقام صاحب الزمان فيها. وقد تشرّفت أنا الحقير بزيارة هذا الموضع.

حارّ جدّاً، غطسنا بعد الظهر في أحد مخازن الماء المليئة بالمياه المالحة طلباً للبرودة.

في النجف الأشرف: يوم الإثنين، الثاني عشر من ربيع الأوّل، وبعد مضيّ أكثر من ساعتين على شروق الشمس، وصلنا مدخل مدينة النجف الأشرف. رزق الله جميع المحبّين زيارة هذه العتبة المباركة.

كانت إقامتنا في النجف الأشرف في بيت الحاج حسين المشهور بـ(مال الله)، وهو ليس بالمنزل السيّء، وإن كان بعيداً بعض الشيء عن الحرم المقدّس، وفيه حوض وسرداب، وهو حديث البناء. واسم خادم البيت والزائرين هو (عابد)، وهو الذي دلّنا عليه وأخذنا إليه....

في هذه الساعة، وحيث لم يبقَ على حلول المغرب إلّا أقلّ من الساعتين؛ أشعر برغبة شديدة في الاستحمام وأداء الزيارة.

«طرّادة» لنقل الأفراد والآليات عبر النهر

(خان الربع) بين كربلاء المقدّسة والنجف الأشرف

وسيلة نقل عامة في العراق مطلع القرن العشرين

رحلة السيّد حسن الموسوي الأصفهاني

(١٣١٥ للهجرة/ ١٨٩٧م)

الخروج إلى النجف: كنا يوم السبت العاشر من ربيع الأوّل في كربلاء. اغتسلنا في الصباح وقرأنا زيارة الجامعة في المقام ثمّ رجعنا إلى المنزل، تناولنا طعام الغداء ونمنا.

توجّهنا عصراً – قبل الغروب بثلاث ساعات – إلى النجف الأشرف. وعدنا من نفس طريق الجبل الذي دخلنا منه، ووصلنا إلى النخيلة حدود الساعة بعد حلول الليل، وبتنا في خان الشمسيّة.

يوم الأحد، الحادي عشر من ربيع الأول تحرّكنا بعد صلاة الصبح من النخيلة، وسرنا مسافة ثلاثة فراسخ. وفي حوالي الساعة الثالثة من النهار وصلنا إلى خان المالح. في المنزل الثالث ألقينا رحالنا على إحدى المصطبات في إحدى الزرائب. الهواء هنا

يوم السبت، السابع عشر من ربيع الأوّل المصادف لعيد ولادة النبيّ صلّى الله عليه وآله، كنّا في النجف الأشرف. رزق الله كافّة الأصدقاء توفيق الزيارة. هذا اليوم هو يوم الزيارة المخصوصة لأمير المؤمنين عليه السلام، التي زاره بها الإمام الصادق عليه السلام، في مثل هذا اليوم وعلّمها لمحمّد بن مسلم الثقفي، وأوردها العلماء في كتبهم المأثورة.

رحلة سكينة سلطان؛ زوجة ناصر الدين شاه

(١٣١٧ للهجرة/ ١٨٩٩م)

مغادرة النجف الأشرف: يوم الجمعة، الثاني والعشرون من ربيع الأول... استيقظنا صباحاً وتناولنا الشاي وعزمنا على الزيارة.

يا ليوم الوداع وثقله، فإنّه شبيه باليوم الذي يودّع فيه الإنسان الحياة، وأطلب من الله بحقّ هذا الإمام العظيم، أن يتقبّل زيارة الجميع، ويتقبّل زيارتي أنا الضعيفة أيضاً إن شاء الله، وفي الحقيقة فإنّ لحظات يوم الوداع تمرّ بصعوبة وبأسفٍ بالغ، قبّلت الحضرة

مجلس درس الآخوند الخراساني قدّس سرّه

مقبرة وادي السلام

المباركة وودّعتها، وخرجت متّجهة نحو العربة، وركبنا، ويعلم الله ما حلّ بي جرّاء وداعي لوادي السلام، ماذا أقول وماذا أكتب؟ ركبنا وقد بقيت لغروب الشمس ثلاث ساعات، وإلى أن غربت الشمس لم يكن فوق شفاهي سوى كلمات الزيارة للحضرة المقدّسة، ولحظةً لحظة، حُرمنا من فيض النظر إليها، وغابت القبّة عن أنظارنا، وصلنا إلى محلّ استراحة القوافل ونزلنا لأداء الصلاة، وركبنا مجدّداً. لم تكن الليلة جيّدة بالنسبة لي، فقلبي منقبض، ليلة مظلمة والمسافرون ساكتون، واللحظات تمرّ بي صعبة للغاية، ولا أكذب إذا قلت بأنّني بكيت طوال الليل، وأتمنّى أن أعود مرة أخرى للزيارة.

وعلى أيّ حال، انقضى الليل والحمد لله، وأصبح الصباح. وبعد صلاة الصبح بدتْ لنا عن بُعد حدائق كربلاء، وسكّن ألمَ فراقِ أمير المؤمنين عليه السلام، وجودي عند ابنه الإمام الحسين عليه السلام، لكن عندما أفكّر في ذهابي من كربلاء أجد أنّه أصعب من الموت بالنسبة لي، ويا حبّذا الموت لأبقى في جوار الإمام الحسين عليه السلام.

رحلة ميرزا داود وزير

(١٣٢٢ للهجرة/ ١٩٠٤م)

... وعند المساء رجعت من الكوفة إلى النجف أوّل المغرب. يُلقي الآخوند [الشيخ محمد كاظم الخراساني، صاحب (الكفاية) والمتوفّى سنة ١٣٢٩ للهجرة] دروسه في خارج الفقه صباحاً في مسجد الهندي، الذي تمتلئ دكّته ورواقه بما يقرب الستمائة أو السبعمائة نفر من الطلبة.

أمّا في المساء، فيلقي درسه في الأصول في مسجد الطوسي، ويحضر هذا الدرس حوالي الألف نفر. لاحظت أنّ الظلام يعمّ ممرّ المسجد ودرجات سطحه ممّا يسبّب الأذى للطلّاب، كما أنّ الماء الذي يجب على الساقي أن يدور به بين الطلّاب العطشى لم يكن توفيره منتظماً لعدم توفّر المتبرّع، وقد وفّقني الله إلى توفير مصباح للمكان من جهة، والاتّفاق على جلب أربع قِرَب من الماء إلى المسجد كي يوزّعها الساقي على الطلبة كلّ ليلة. وما توفيقي إلّا بالله.

إنّ ظروف طلبة النجف الأشرف قاسية جدّاً، وأفضل أعمال الخير التي يستطيع الإنسان القيام بها هو مساعدتهم. أرغب في مساعدتهم بمبالغ كبيرة، لكن ماذا أعمل مع حظّي العاثر...

ومن بين الأخيار الزهّاد في الدنيا الذين قابلتهم في النجف، جناب المتشرّع السيّد مرتضى الكشميري، والقلم يعجز عن بيان قداسته وزهده.

رحلة السيّد أحمد هدايتي

(١٣٣٨ للهجرة/ ١٩١٩م)

اليوم السبت الخامس من جمادى الأولى: الموافق للخامس والعشرين من برج الجدي، غادرنا الكاظمين إلى بغداد، أنا والحاج السيّد أحمد، وفي نيّتنا التوجّه لزيارة كربلاء المقدّسة بعد أن حجزنا تذكرة السفر بالعربة بتاريخ الغد.

بتنا الليلة في الفندق الإسلامي الجميل جداً والمبني حديثاً، وهو فندق نظيف استرحنا فيه.

قبل أذان الفجر من صباح الأحد، جاء فرّاش شركة السفريّات وأيقظنا. صلّينا الصبح وتوجّهنا إلى إدارة الشركة وركبنا في العربة. بعد مضيّ ساعتين على شروق الشمس وصلنا إلى المحموديّة، تناولنا الغداء في المسيّب. أثناء مسير العربة شاهدنا العديد من البيوت التي أحرقها الإنجليز وهدّموها في حربهم مع العرب.

قبل الغروب بساعة، وصلنا إلى كربلاء المقدّسة، وتوجّهنا إلى بيت السيّد كاظم الخادم، وقضينا أربع ليالٍ في زيارة وتقبيل عتبة جدّنا المظلوم سيّد الشهداء عليه السلام.